إسهام علماء العرب والمسلمين في الآداب الفيدية وعلوم الهند

الأستاذ/ م. زين الدين
أستاذ مشارك ورئيس قسم العربية، كلية الجامعة، تروننتبرام، كيرلا
Email: sainuddeenm@gmail.com

من المعلوم أن المسلمين قد اهتمّوا كثيرا بدراسة الأديان والمذاهب، وألّفوا في ذلك كتبا بعضها خاص بطائفة من الطوائف، وبعضها عام. منها كتاب "مقالات الإسلاميّين" لأبي الحسن الأشعري، وكتاب "الفرق بين الفرق" لعبد القاهر البغدادي، وكتاب " الفصل والملل والنحل" لابن حزم الظاهري، وكتاب "طبقات الأمم" للقاضي صاعد الأندلسي. وإلى جانب ذلك هناك باحثون مسلمون مثل المسعودي، والطبري، والقزويني، وابن خرداذبه، وابن هشام، وابن إسحاق، وابن النديم، وابن سليمان التاجر، وأبو عبد الله الدمشقي وغيرهم الذين لهم روائع علمية مشهورة، وقد حازت ثناء الجميع. وإن كتاب "الملل والنحل" لأبي الفتح محمد الشهرستاني في القرن السادس للهجرة يمتاز عن غيره من الكتب التي ألّفت في هذا الموضوع بميزة جعلته فريدة في بابه. فهو دائرة معارف مختصرة للأديان والمذاهب والفرق والآراء الفلسفية المتعلقة بما وراء الطبيعة التي عُرفت في عصر المؤلف. وإن الحقائق شاهدة بأن علماء الإسلام لما تناولوا أقلامهم ليكتبوا شيئا عن العلوم والمعتقدات الإسرائيلية أو المسيحية أو الهندوسية فكانوا متصفين برحب الصدر وملتزمين بكل دقة وتحقيق وتركوا وراءهم روائع علمية خالدة تقول بلسان حالها : "إن مآثرنا مخلدة على لوح العالم".

وهناك كتب دوّنت فيها معلومات قيمة عن أهل الهند والديانات الفيدية Vedic Religions. كان يحيى البرمكي الوزير للخليفة هارون الرشيد قد بعث وفدا

مكوّنا من العلماء الأفذاذ وأسعى النظر إلى الهند للإطلاع على ديانة الهنـــود وأحوالهم المدنية والاقتصادية وشؤونهم الملكيـــة والإداريـــة. فقـــام الوفـــد بتمحيص الحوادث وبحث الأحوال ثم جمعها في كتاب يسمّى بـــ"كتاب ملـــل الهند وأديانها". هذا الكتاب الآن عديم الوجـــود، ولكـــن جـــاء فـــي كتـــاب "الفهرست" لابن النديم أنه كان موجودا حتى عام 987م واستفاد به أهل العلم والمثقفون. ويعتبر الكتاب المشهور " تحقيق ما للهند" لأبي ريحان البيرونـــي مخزنا للمعلومات عن الديانة الفيدية في القرن الخامس الهجري . وإنه يتّضح من أقوال العلماء وسيرهم أنهم اطّلعوا علـــى خصـــائص الديانـــة الفيديـــة واستوعبوها بصورة مباشرة حيث أن هدفهم كان أساسيا إصلاح عامة الناس وتحقيقها. لهذا الغرض قد أتقنوا ألسنة أهل الهند، ومع هذا نـــرى مســـاهمة المسلمين في أدب السنسكرتية. وإن قيام دولة المسلمين في الهند وما ترتّبت على انتشار الثقافة قد أدّى إلى تطوير كل العلوم والفنون وخاصة كان له أثر كبير في نشر اللغة السنسكرتية وآدابها. فإن المؤلفات العديـــدة التـــي ألّفـــت والكتب الكثيرة التي تُرجمت تحت رعاية الأمراء والسلاطين المسلمين فـــي ذلك العهد خير شاهد على ذلك. وقد طلب الخليفة المنصور ترجمة كتاب علم التنجيم الهندي" سدّهانتا" Siddhanda (المبادئ) باستعانة علماء الهنود[1].

ويقال إن البيروني كان أول شخص تعلم اللغة السنسكرتية ودرس كتبا كثيرة بها، والذي يتميّز بأنه أول رجل قام بدراسة الإندولجية (الدراسة الهنديـــة)، كما نقل عدّة كتب سنسكرتية إلى العربية منهـــا "كرنـــاتيلاك" Karnatilak و"يوجا سوترا" Yogasutra. ويعتبر كتابه "إنديكا" موسوعة وذلـــك بســـبب التفاصيل الواردة عن علم الفلسفة الهندوسية، وعلم التنجيم، والفيدا، والكتـــب الدينية المقدسة، والجغرافية وما إلى ذلك. وكـــان البيرونـــي مُلمّـــا بعلـــوم "الرامايانا" و"المهابهاراتا" والقواعد اللغوية إلماما جيدا.

[1] Hakim Abdul Hameed , Studies in History of Medicine and Science, Part IX No. 3-4 (1985) Page 161

ومن الناس من قسم أهل العالم بحسب الأمم، فقال- كبار الأمة أربعة : العرب، والعجم، والروم، والهند. ثم زاوج بين أمة وأمة، فذكر أن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد، وأكثر ميلهم إلى تقرير خواص الأشياء والحكم بأحكام الماهيات والحقائق، واستعمال الأمور الروحانية. والروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد، وأكثر ميلهم إلى تقرير طبائع الأشياء والحكم بأحكام الكيفيات والكميات، واستعمال الأمور الجسمانية[1]. ومنهم من قسم بحسب الآراء والمذاهب، وهم منقسمون إلى أهل الديانات والملل مثل المجوس واليهود والنصارى والمسلمين، وإلى أهل الأهواء والنحل مثل الفلاسفة، والدهرية (الذي لا يؤمن بالحياة الآخرة)، والصابئة (الذي من خرج ومال إلى دين من دين، أي الذين يدّعون أن مذهبهم هو الاكتساب ضد الحنفاء مذهبهم هو الفطرة)، وعبدة الكواكب والأوثان، والبراهمة.

إن الهند أمة كبيرة وملة عظيمة، وآرائهم مختلفة، فمنهم البراهمة وهم المنكرون للنبوات أصلا، ومنهم من يميل إلى الدهر، ومنهم من يقول بملة إبراهيم عليه السلام وأكثرهم على مذهب الصابئة ومناهجها، ومن قائل بالروحانيات ومن قائل بالهياكل ومن قائل بالأصنام، إلا أنهم مختلفون في شكل الهياكل التي ابتدعوها وكيفية أشكال وضعوها[2].وإن مشركي الهند كانوا يمثلون فرقة أصحاب الهياكل أي عبدة الكواكب من الصابئة، وكان مشركوا العرب يمثلون فرقة أصحاب الأشخاص أي عبدة الأوثان. ويمكن لنا القول أن الصابئة ملة معروفة قديمة من بين الملل الست التي ورد ذكرها في الآيات القرآنية، وهي : اليهود، والنصارى، والمؤمنون، والصابئون، والمجوس، والمشرك[3]. وفي الجملة هناك أديان كثيرة في بلاد الهند، ولكن الهندوسية[4]Hinduism هي دين الغالبة، وليس لها مؤسس يمكن الرجوع إليه

[1] الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1/ ص 12

[2] نفس المرجع، ج 4 /ص 1287

[3] راجع الآية 62 من البقرة والآية 61 من المائدة والآية 17 من الحج

[4] الهندوسية : هي عبارة عن مجموعة من العقائد والتعاليم التي ضمنتها كتب فيدا Vedas. ومعنى كلمة فيدا في اللغة السنسكرتية "المعرفة" لأنها تتضمن المعارف والأفكار والمبادئ

كمصدر لتعاليمها وأحكامها. وهذه الديانة تجمع بين الوثنية الساذجة، والآراء الفلسفة السامية، والزهد الصادق . وتجد كل هذه ممتزجا بعضه ببعض، أي لا ترجع الهندوسية بأصلها إلى نبي مرسل، ولا إلى كتاب منزل أو إلى وحي سماوي[1].

فيما يلي نلاحظ بعض آراء العلماء عن العقائد الدينية للهندوسية على ضـــوء دراستهم القيمة في هذا المجال. يقول القاضي صـــاعد الأندلســـي : يتفــق الهندوس على أن الله واحد لا شريك له، إن أكثرية الهندوس من الصائبة وهم

التي قالها حكماء الهند القدامى، ويسمى كل من هؤلاء الحكماء "ريشي" Rishi أو "موني" Muni أي الحكيم أو العارف. وقد أطلق على تلك المبادئ والتعاليم اسم الهندوسية لأنها نشأت وتطورت في أرض الهند، كما أنها تشتمل العقائد والتقاليد والعادات البدائية المنتشرة بين السكان الأصليين في الهند القديمة، وكذلك العادات والمعتقدات التي نشأت فيما بعد باحتكاك الآريين Aryans الذين وفدوا على الهند واستقروا فيها.ثم أصبحت هذه الأفكار والمبادئ أساسا لتنظيم المجتمع الهندي في شتى مرافق الحياة حتى أعتبرت تلك الأفكار والمبادئ على مرّ التاريخ دينا يدين به سكان الهند وصارت كتب فيدا مقدسة لهم ومصادر عقائدهم وآدابهم وشرائعهم. وقيل إن الفيدات أقدم من التوراة بآلاف سنين وهي تتألف من أربعة أسفار : "ريج فيدا " و"ياجور فيدا" و" ساما فيدا" و"آثارو فيدا" . وقد كتبت هذه الفيدات الأربع في لغة سنسكريتية بالأناشيد والأغاني التي اعتاد الآريون القدماء أن يتغنوا بها، ويعرف العصر الذي دوّنت فيه الفيدا بالعصر الفيدي. وكل من هذه الفيدات الأربع يشتمل على أربعة أجزاء هي : "سمهيتا"Samhitha (أي المجموعة) وهي تمثل الآراء العقائدية الأولى للهنود في العصور القديمة، و"برهمنا"Brahmana (أي التفاصيل عن القرابين والعبادات)، و"آرانياك" Aranyak (أي الأمور المتعلقة بالزهاد والنساك)،و"أوبانيشاد" Upanishad (أي الأسرار الملخصة من تلك الكتب . فالاسم الأصلي لديانة الهندوسية هو الفيدية منسوبة إلى كتب فيدا التي هي مصدرها الأساسي الأول. وأن الكلمة السنسكرتية المقابلة لكلمة دين أو ديانة في العربية هي "دهرم"Dharm والمتدين هو "الدهرمي" Dharmi، وبهذا عرفنا أن كلمة الهندوسية أطلقت على الفيدية مجازا وكذالك سموا دهرمي فيدي Vedic Dharmi . ومنذ القرن التاسع قبل الميلاد بدأت في الفكر الهندوسي عقيدة إلهية خاصة، فهي أقرب إلى أن تسمّى بفكرة التثليث الهندوسي Hindu Trinity حيث بدأ بعض الكهنة الهنود يجمعون الآلهة في إله واحد وسموه "برهما" Bhrama وقالوا إنه هو الذي أخرج العالم من ذاته، ثم أطلقوا عليه اسمين آخرين "فيشنو" Vishnuالذي يحفظ الكائنات بعد إيجادها، و"شيفا" Shiva هو المختص بالتبديل والتحويل .

[1] د/محي الدين الآلواي ، الدعوة الإسلامية وتطورها في شبه القارة الهندية، ص 237

يعتقدون بأزلية العالم ويؤمنون بأن علة العلل تعني خالق الكائنات قد خلق العالم، وهم يقدسون الكواكب[1].

ويبين الشهرستاني أن الهندوس قوم كبير وعندهم ديانة كبيرة ولهم عقائد دينية مختلفة، فطائفة يقال لها البراهمة، تعتقد بثنائية وتقرّ بأن المذهب الإبراهيمي على حق، ولكن أكثر الهندوسيين تتبع مذهب الصائبة، وجماعة تؤمن بالروحانية، وجماعة تعبد الهيكل، وفرقة تؤمن بعبادة لأصنام. إن البرهمية طائفة تتبع دين سيدنا إبراهيم عليه السلام[2].

ويذكر البيروني أن للهندوس عقيدة عن الله أنه واحد وأزلي وليس له بداية ولا نهاية، وهو مستقل بنفسه، وهو على كل شيء قدير، وكل أعماله مبني على الحكمة والبصارة . إنه حي بنفسه وواهب الحياة لغيره ومدبّر الكائنات، وإن بقاء كل شيء مختصر عليه، لا حليف له في ملكه وليس كمثله شيء[3].

وفضلا عن ضلك نقل البيروني أقوال العلماء الهندوسيين، ومنها الناسك "باتنجلي"، وقوله هذا مأخوذة من كتابه "يوجاسوترا" Yogasutra في موضوع الفلسفة والروحانية، إذ يقول : إن الله هو المعبود الذي كلم براهما (إبراهيم عليه السلام) وأهل المعرفة القدماء (موسى عليه السلام وغيره) بطريق مختلفة وأنزل كتابا على بعضهم، بينما وهب العلم للآخرين بطريق أخرى وأوحى إلى بعضهم الآخرين منهم. وإذا كانت الحواس لا تستطيع أن تدرك الله فإن الروح تعرفه. ويمكن للإنسان الشعور بصفاته بالتأمل، وهذا التأمل تعتبر في الحقيقة عبادته، وبالمحافظة على هذا التأمل يحظي للإنسان بالسعادة والفلاح الحقيقي[4].

وكتب مطهر بن طاهر المقدسي في كتابه "البدء والتاريخ" : للبراهمة ثلاث فرق، فرقة تؤمن بالتوحيد والثواب والعقاب، وللموحدين فرقتان: زمانية

[1] القاضي صاعد اللأندلسي، طبقات الأمم " ص 12
[2] الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1/ ص 250
[3] البيروني، تحقيق ما للهند، ص 20
[4] نقلا عن مجلة ثقافة الهند

وروانية، وهي تؤمن بالرسالة والتوحيد. وقال العالم والمفسر الشهير الإمام فخر الدين الرازي في التفسير الكبير : لما ذهبت إلى الهند رأيت أن كلهم (الهندوس) متفقون على وجود الله (من تفسير سورة الهود).

وقد صدق القاضي ثناء الله البانيباتي حينما قال : إن المبادئ الدينية لأهل الهند تتوافق مع الكتاب والسنة، ويقول أمير المؤمنين سيدنا عمر (ر) إن الصابئين من أهل الكتاب ويجوز أكل ما يذبحون (من تفسير المظهري).و نرى في خطبة مولانا أبي الكلام آزاد يقول: وفيما أعلم كانت الديانة الهندوسية أقرب الأديان إلى نظرية التوحيد في العالم وعندي شواهد ونظائر كثيرة تشهد بذلك. كل شكل الديانة الهندوسية قد تغير ولم يبق حتى الآن كما كان.

يقول العالم المعروف من كيرالا محي الدين الآلوائي: إن فكرة وحدة الوجود الهندوسية قد نجمت عن نزعتها في تعدد الآلهة، وتتمشى مع عقيدتها الوثنية . وبعبارة أخرى، فقد جمعوا الآلهة في إله واحد من جانب، ومن جانب آخر أنشؤوا الآلهة المتعددة من صفات، ومظاهر ذلك الإله الواحد[1].

ويوضح الدكتور إسماعيل الندوي: لم تظهر عقيدة التناسخ Transmigration (هي انتقال الروح من جسد إلى جسد آخر بعد مفارقتها حياة الإنسان) في الديانة الآرية، وعقيدة الآخرة في عصر الفيدا فكانت تشبه عقيدة سكان الشرق الأوسط. لأن الأرواح الطيبة كانت تتمتع بالسعادة، والشريرة تعاني أشد أنواع العذاب، وكانت السعادة هي الجنة حيث كانت الأرواح تنعم بأنواع من المتع وأسباب الراحة والنعيم . وأما العصاة والمجرمون فيدخلون الجهنم، وهي الطبقة السفلى الثالثة تحت الأرض حيث يعذب على يدي الإلهين سوما وإندرا اللذين يرميان العصاة في أعماق الجهنم[2].

[1] د/محي الدين الآلوائي، الدعوة الإسلامية وتطورها في شبه القارة الهندية، ص 251

[2] د/ إسماعيل الندوي، الهند القديم حضارتها ودياناتها، ص 97

وهناك محاولات كثيرة لدى العلماء في استخدام الكلمات الفيدية وتعاليمها في نشر رسالة الإسلام. ومن أغلب الظن أن الشيخ معين الدين الجيشتي الأجميري كان يدعو متبعي الديانة الفيدية إلى الإسلام في ضوء الحقائق والتعاليم الفيدية. وقد قارن الأمير خسرو بين أديان العالم من وجهة نظر التوحيد وفضل الديانة الفيدية ومعتنقيها على المذاهب الأخرى ما عدا الإسلام. وتوجد ترجمة معاني القرآن بالألفاظ الفيدية مثل ما فعل مولانا فضل الرحمن الكنج مرادابادي المتوفي 1895م .هذه هي بعض الآيات القرآنية مع الكلمات المساوية لها بالهندية : 1–ذلك الكتاب لا ريب فيه، الكتاب = الفيدا العظيم 2–هدى للمتقين، المتقين = بهكت 3– إنما أنا رسول ربك، الرسول = مهديس سنديشي، كلهم آتية يوم القيامة فردا، القيامة = مها برلي كا دن . وإن هذه الترجمة ليست حرفية بل إنها بالمعنى.

فثبت من هذا أن الديانة الفيدية تتعلق أساسا بالكتب السماوية، بل هي مأخوذة منها. وكيف يمكن التسليم بأن الله لم يرسل رسولا أونبيا ولم ينزل كتابا أو صحيفة من السماء لهداية هذه الخلائق الضخمة في مثل هذه البلاد الواسعة، ويقول الله : " ولقد بعثنا في كل أمة رسولا" . ويتّضح أن البرهمية طائفة آمنت بسيدنا إبراهيم عليه السلام، وهاجرت وطنها هاربة من ظلم النمرود واستقرت في إيران (هم الآريون)، ولما انتشرت المجوسية في إيران، اعتنقت هذه الطائفة أيضا الوثنية. وإلى جانب هذا يقال إن الهندوس الآخرين يتبعون ديانة الصابئة ولهم الأغلبية. ويظهر من التفكير الفيدي فيما يختص بالعقيدة الإلهية أن نزعة وحدة الآلهة أسبق من نزعة تعدد الآلهة وكثرتها. وقد نشأت نزعة تعدد الآلهة وتطورت لدى الفيديين بمراحل حسب تصوّرهم للمظاهر الكونية وعلاقاتها بحياة الإنسان، فصوّروا لكل قوة طبيعية تنفعهم أو تضرهم إلها . ثم ظنوا أن للمظاهر الكونية العظيمة أرواح ونفوس كامنة وراء هذه المظاهر. فابتكروا لها هياكل وأشكال حسب تصوّراتهم عنها. فتقربوا إليها بالعبادة والقرابين والأدعية، وعلى هذا كثرت الآلهة عندهم. وما لاشك فيه أن أقوال الفيدا تتطابق مع الكتب السماوية تمام المطابقة. هناك

إشارة واضحة لأن الفيدا المقدس يتحدث عن نفس العقائد التي تحدّث عنها القرآن. ولكن معتقدي الديانة الفيدية في العصر الحاضر ليسوا اتباعيين صادقين لها.